غزوة تبوك

مدرسة الدعوة ومنهج الدعاة

بقلم

د. إبراهيم عبد الرحمن خليفة

غزوة تبوك(*)

مدرسة الدعوة ومنهج للدعاة

ما أكثر ما تحفل به سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من دروس ومواقف .

وما أشد حاجة أمتنا إلى أن تتملى هذه الدروس . فى محاولة لتجليتها ، والتأسى بها .. وصوغ حياتنا على ضوئها .. صياغة تعود بها إلى سالف عهدها شاهدة على الناس ، ، واقفة بالمرصاد فى وجه الأعداء الماكرين الراغبين فى النيل منا .

وغزوة تبوك واحدة من المواقف التاريخية الحافلة بالدروس والعبر. التى تتطلب منا المثول بين يدى أحداثها . ومكونات العظمة فيها

ثم تنسق هذه الدروس المستفادة تنسيقا يبدو من خلالها وجه الأمة المشرق .

(*) تبوك بفتح التاء موضع بين وادى القرى والشام ، وقيل بركة لأبناء سعد من بنى غذرة . وقيل تبوك بين الحجر وأول الشام : وهو حصن به نخل وعين وحائط ينسب إلى النبى — ﷺ — ، ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بعث إليهم شعيب — عليه السلام — كانوا فيها ولم يكن شعيب منهم ، وإنما كان من مدين .

وقال يحيى بن جابر .. توجه النبى — ﷺ — فى سنة تسع من الهجرة إلى غزوة تبوك من أرض الشام ، وهى آخر غزواته . انظر السيرة النبوية لابن هشام جـ ٤ ص ٨٣ ، فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٨ ص ١١١ ، صحيح البخارى بحاشية السندى جـ ٣ ص ٨٥ ومابعدها .

تلك الأمة التى يجب أن تأخذ مكانها اليوم تحت الشمس بما تملك من رصيد ضخم ،، يجعل منها خير أمة أخرجت للناس ،، شاهـــدة على الناس ،، قادرة على الإمساك بالزمام ،، لتقود العالم إلى الأمام .

أسباب الغزو :

من أسباب غزو الروم ١ — ما رواه الطبرانى من حديث عمران بن حصين قال : « كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل ،، إن هذا الذى خرج يدعى النبوة هلك ، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم ، فبعث رجلا من عظمائهم يقال له قباذ ، وجهز معه أربعين ألفاً ،، وكانت هذه الجموع من الروم ومعها بعض قبائل العرب من لخم وجـــذام وغيرهم من منتصرة العرب .

وقام الروم بوضع هذه الحشود الضخمة على الحدود الشمالية لجزيرة العرب .

٢ — ترامت الأنباء بواسطة الأنباط الذين كانوا ينتقلون بين الشام والمدينة للتجارة بأن الروم يعدون لغزوة حاسمة ضد المسلمين .

٣ — مقتل فروة بن عمرو الجذامى ،، وكان قائداً من قواد الروم ، ووالياً على من يليهم فى شمال جزيرة العـــرب ، وكان منزله بمعان وما حولها من أرض الشام ، فأسلم ،، فلما بلغ الروم نبأ إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم ، ولما عزموا على قتله ،، استغاث بالمسلمين وبرسول الله ﷺ فى قوله :

بلغ سراة المسلمين بأنى سلم لربى أعظمى ومقحمى

٤ — إن قيمة الجندى المسلم عظيمة فى الإسلام ،، وحمايته

واجبـــة أو الثأر له ، ولو اقتضى الأمر إشعال حرب كاملة من أجله .

وما بيعة الرضوان بسر .. وما غزوة مؤتة التى سببها مقتل الحارث ابن عمير رسول رسول الله ﷺ بسر ،، وما سرية أسامة إبى زيد إلى مخوم الشام بسر ،، وكذلك غزوة تبوك .

حيث قامت هذه الغزوات جميعاً ثأرا من الغادرين الذين يقتلون الرسل ،، ويستخفون بالأعراف الدبلوماسية ،، لأن الرسل لا تقتل فى الأصل[1] .

٥ — عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق ،، لقربهم إلى الإسلام وأهله ،، وتأمين حدود المسلمين منهم ،، وقد قال الله فيهم : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين »[2] .

الظروف الصعبة :

(أ) كان لقاء الروم أمر حتميا ،، وحين أعلن رسول الله ﷺ قراره بالإستعداد للقاء الروم كانت هناك ظروف صعبة وشاملة هى :

١ — كان الوقت زمان عسرة من الناس ، والطريق وعرة صعبة .

٢ — وشدة من الحر . ٣ — وجدب من البلاد .

---

(١) المنهج الحركى للسيرة النبوية — منير الغضبان ص ١٨٨ القسم الثالث .

(٢) سورة التوبة الآية رقم ١٢٣

٤ — وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه .

(ب) كان رسول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يعمد له ،، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس ،، لبعد الشقة ، ،وشدة الزمان ،، وكثرة العدو الذى له ،، ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم[1] .

وحض أهل الغنى على النفقة والحملان فى سبيل الله . فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان بن عفان (رضى الله عنه) نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها[2] .

ولذلك سميت هذه الغزوة — بغزوة العسرة ، وساعة العسرة — يؤيد ذلك ما جاء فى تفسير عبد الرازق عن معمر عن ابن عقيل قال : ، خرجوا فى قلة من الظهر وفى حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما فى كرشه من الماء ،، فكان ذلك عسرة من الماء وفى الظهر وفى النفقة ،، فسميت غزوة العسرة ، ، وذلك فى تفسير قوله تعالى : « ... الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ،، »[3] .

ويظهر ذلك جليا مما وقع لعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقد كان النبى ﷺ آلى من نسائه شهراً فى هذه السنة (٩ هـ) وكان هجرهن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام حـ ٤ ص ٨٣ ، البداية والنهاية لابن كثير حـ ٥ ص ٤

(٢) المرجع السابق حـ ٤ ص ٥١٨

(٣) سورة التوبة جزء من الآية رقم ١١٧

واعتزل عنهن فى مشربة له ، ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر فى بدايته فظنوا أن النبى ﷺ طلقهن ، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق ، يقول عمر بن الخطاب — وهو يروى هذه القصة — : وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتانى بالخبر ، وإذا غاب كنت آتيه أنا بالخبر — وكانا يسكنان فى عوالى المدينة ، يتناوبان إلى النبى ﷺ — ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد إمتلأت صدورنا منه ، فإذا صاحبى الأنصارى يدق الباب ، فقال: افتح ، افتح ، فقلت : جاء الغسانى ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه . الحديث[1] .

القيادة الحكيمة والنظر الثاقب :

فى هذه الظروف تجلت قيادة الرسول الحكيمة ونظرته الثاقبة إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله ...

كان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو الرومان فى هذه الظروف الصعبة والحاسمة ، وتركهم يحوسوا خلال المناطق التى كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه ، وزحفوا إلى المدينة لكان لذلك أسوأ الأثر على الدعوة الإسلامية ، وعلى سمعة المسلمين العسكرية ، وتضيع الجهود التى بذلها وهو وأصحابه فى نشر الإسلام ، وتذهب المكاسب التى حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة .

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى جـ ١ ص ٥٠٩ ، انظر صحيح البخارى — جـ ٢ ص ٧٣٠

لذلك قرر رسول الله ﷺ القيام — مع ما كان فيه من العسرة والشدة — بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان فى حدودهم ، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام[1] .

المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو :

أعلن رسول الله ﷺ فى الصحابة أن يتجهزوا للقتال ، وبعث إلى القبائل من العرب ، وإلى أهل مكة يستنفرهم ، ولما سمع المسلمون ذلك تسابقوا إلى إمتثال أمر رسول الله ﷺ ، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية ، كما تسابق المسلمون فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات ، كان عثمان بن عفان — رضى الله عنه — قد جهز عيرا للشام ، مائتى بعير بأحلاسها[2] وأقتابها[3] ، ومائتى أوقية ، فتصدق بها ، ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها . ثم جاء بألف دينار فنثرها فى حجر النبى ﷺ ، رسول الله ﷺ يقبلها ويقول : ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم[4] .

---

(١) المرجع السابق ص ٥١١ ، ٥١٢

(٢) الحلس : جمع أحلاس ، كل شىء يوضع على ظهر الدابة تحت الرحل — انظر فقه السيرة للبوطى ص ٣٠٩

(٣) القتب : وهو رحل صغير على قدر السنام .

(٤) جامع الترمذى . مناقب عثمان بن عفان ج ٢ ص ٢١١ ، البداية والنهاية لابن كثير ج ٥ ص ٥ ، فقه السيرة للبوطى ص ٣٠٩ ، فقه السيرة للغزالى ص ٤٢٦

ثم تصدق وتصدق حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير .. ومائة فرس سوى النقود .

ولم يكن عثمان رضى الله عنه وحده .. وإنما كان له من الصحابة رفاقا على طريق البذل : جاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية فضة ، ومن قبله جاد أبو بكر رضى الله عنه بما له كله ، ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله .. وكانت أربعة آلاف درهم .. وهو أول من جاء بصدقته ، وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسرع بنصف ماله ، أما العباس فقد تبرع بمال كثير ، وجاد طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة .. كلهم جادوا بمال ، وحمل عاصم بن عدى تسعين وقا من التمر ، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها ، حتى كان منهم من أنفق مداً أو مدين لم يكن يستطيع غيرها .

النساء فى قلب المعركة :

ولم يقتصر الأمر على همة الرجال .. وإنما كان للنساء موقفهم المساوق لموقف الرجال :

فقد بعثت النساء بأعز ما تقتنيه المرأة وهو :

المسك .. والمعاضد .. والخلاخل .. والقرط .. والخواتم .. والحلى .

مواقف المنافقين :

كان المنافقون منطقيين مع أنفسهم :

فلأنهم غير مؤمنين حقيقة .

لأن أما نيهم ليست مع الحق .. بل على العكس .. إنها لتتحرق شوقا إلى هزيمته .

لأن المنافقين كذلك فقد بخلوا بالمال .. فى سبيل نصر يحميهم من الأعداء عبر الحدود .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل جعلوا من السخرية سبيلا إلى توهين القوة ..

فلا هم الذين أنفقوا .. ولا هم الذين سكتوا ..

وفى ذلك يقول سبحانه : [الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات .. والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم[1] .. سخر الله منهم ولهم عذاب أليم[2]].

من صور مكر المنافقين :

أثناء تجهيز الجيش لغزوة تبوك والذى بلغ قوامه ٣٠ ثلاثين ألفا .. برزت مخططات المنافقين فى الظهور بتوزيع المهام بين المدينة قبل النفير .. ومع الجيش .. وبعد العودة .

(أ) لم يكتفوا بقعودهم مع الخوالف ، بل حاولوا حض الناس على ذلك .. وذلك قوله تعالى : [لا تنفروا فى الحر...][3] .

(ب) تعللوا بشتى المعاذير التى من شأنها تثبيط الهمم ...

---

(١) سورة التوبة جزء من الآية رقم ٧٩

(٢) الرحيق المختوم ص٥١٢ ، ٥١٣

(٣) سورة التوبة جزء من الآية رقم ٨١

[... ائذن لى ولا تفتنى ..][1] .

(ح) ويكشف السياق عن باطنهم المحشو بالخذلان .. والعزم على التخلف الذى لو أرادوه لأستعدوا له :

[ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة .. ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين][2] .

محاولة اغتيال الرسول :

وكان على رأس هـــذه المخططات جميعاً محاولة إغتيال رسول الله ﷺ .

[يحلفون بالله ما قالوا .. ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعـــد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا .. وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله .. فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة .. ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير][3] .

يقول صاحب الظلال :

بعد أن أختار ما رواه الإمام أحمد ـــ رحمه الله ـــ لهذه الموقعة التى توضح فعل المنافقين وكشف مخططهم .. بسؤال رسول الله ﷺ لعمار: « هل عرفت القوم ؟» فقال : لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون.

---

(١) سورة التوبة جزء من الآية رقم ٤٩ ـــ ونزلت هـذه الآية فى : الجد بن قيس كما سيأتى فى البحث بموضعه

(٢) سورة التوبة الآية رقم ٤٦

(٣) سورة التوبة الآية رقم ٧٤

قال : «هل تدرى ما أرادوا ؟ «قال : الله ورسوله أعلم .قال : «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ راحلته فيطرحوه» «

هذه الحادثة تكشف عن دخيلة القوم... فإنه ليبدو عجيباً أن تنطوى صدور القوم على مثل هذه الخيانه .. والنص يعجب هنا منهم :

« وما نقموا إلا أغناهم الله ورسوله من فضله .. » .

فما من سيئة قدمها الإسلام لهم ينقمون عليه هذه النقمة من أجلها .. إلا أن يكون الغنى الذى غمرهم بعد الإسلام ، والرخاء الذى أصابهم بسببه هو ما ينقمون ؟

ثم يعقب على هذا التعجيب من أمرهم بعد كشف خبيئاتهم بالحكم الفاصل :

« فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم عذابا أليما فى الدنيا والآخرة ، ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير »[1] .

بعد هذا كله يظل باب التوبة مفتوحا على مصراعيه .. فمن شاء لنفسه الخير فليدلف إلى البهاب المفتوح ، ومن أراد أن يمضى فى طريقه الأعوج . فالعاقبة كذلك معروفة .. العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، وإنعدام الناصر والمعين فى هذه الأرض .. ولمن شاء أن يختار ، وهو وحده الملوم[2] .

---

(١) سورة التوبة : جزء من الآية رقم ٧٤

(٢) فى ظلال القرآن — سيد قطب حـ ٣ ص ١٦٧٨ — دار الشروق

محاولة لإثبات الشخصية :

وفى المدينة فقد كانوا يخططون لافتتاح مركز خاص لهم ، يأوى إليه كل المنافقين .. وهو مسجد الضرار ، والذى وعد رسول الله ﷺ بافتتاحه والصلاة فيه بعد العودة من تبوك .

وأطلع الله تعالى نبيه على الهدف من ذلك ، فبعث من يحرق مسجد الضرار بمن فيه .. بدل أن يصلى فيه .. قال تعالى : « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين .. وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى .. والله يشهد إنهم لكاذبون »[1] .

إحباط كيد المنافقين :

كان ذلك عن طريقين :

أولا : آيات سورة براءة التى نزلت فى المنافقين — قرابة مائة آية — كشفت مخططاتهم ، وعرتهم تعرية كاملة فى المجتمع الإسلامى .. فكانت أعنف حرب إعلامية عليهم .. حتى كان الصحابة يطلقون عليها أسماء عديدة منها : المخزية .. والفاضحة .. والمبعثرة .. واستطاعت هذه الحملة الناجحة أن تهزم معسكر النفاق ، وتعيد الكثيرين منه إلى الصف الإسلامى الخالص[2] .

---

(١) سورة التوبة الآية رقم ١٠٧

(٢) فيض الوسالة د. أبيض أبو الخشب ص ٣٣١ ، المنهج الحركى للسيرة النبوية ص ١٩٠ ، ١٩١

دروس من الآيات الكريمة :

يتضح من هذه الآيات الكريمة ما يلى :

١ — الوجود العش للمنافقين يحاول تثبت دعائمة ، وسط هذا الحضم الهائل من المسلمين .

٢ — ومعنى ذلك أن الباطل لا ييأس أبدا من محاولة إثبات هذا الوجود وتحت أى ظرف من الظروف .

٣ — يتخذ الملحدون من الدين شعارا للتمويه .

٤ — وتدق حيلهم حتى تخفى على أهل الذكر .

٥ — اتخاذ الأيمان المؤكدة .. تدعيما لمواقفهم الماكدة .

٦ — ضرورة الحذر من هذا الكيد .

ثانيا : موت زعيمهم عبد الله بن أبى بن سلول — كان ضربة موجهة لهم .

ثالثا : مواقف المسلمين المستميتة . . للتضحية . . كانت ردا منها على هذا المخطط المعادى .. ومن هؤلاء المسلمين :

البكاءون..صورة شرفة سجلت — فى الاعداد للغزو — طوابا النفوس.. ومقدار ما استودعت عن إخلاص . . ترى أغنياء أخرجوا ثرواتهم لتجهيز الجيش .. وإمداده بحاجته من الرواحل والسلاح .. والخيل .. ونرى الفقراء الذين شاقهم الجود بأنفسهم فى سبيل الله — ثم أعجزتهم الوسائل تبلغهم الميدان .. فسحت أعينهم الدمع لهذا الحرمان[1] الذى

(١) فقه السيرة للغزالى — ص ٤٢٦

وقف حائلا بينهم وبين المشاركة .. فذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليحملهم حتى يصحبوه فى غزوته هذه .. فلم يجـــد واعنده من الظهر ما يحملهم عليه .. فرجعوا يبكون تأسفا على ما فاتهم من الجهاد فى سبيل الله .. والنفقة فيه[1] .

وقد روى ابن إسحاق أن علية بن زيد خرج من الليل فصلى من ليلته ما شاء الله له .. ثم بكى و وقال :«اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه. وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها فى مال .. أو جسد .. أو عرض .

وأصبح الرجل — على عادته — مع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «أين المتصدق هذه الليلة ؟» فلم يقم أحد .. ثم قال : «أين المتصدق ؟ فليقم .. فقام إليه فأخبره .. فقال رسول الله ﷺ : «أبشر فوالذى نفسى بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة»[2] .

إرادة القتال :

وهكذا ظهر عند داعى القتال هذا التسابق الفريد .. وأثبت الموقف نفاسة المعدن الإسلامى .. والذى يزداد بريقا فى العصواصف .. وعندئذ حانت الفرصة لينفر ﷺ بجيش مستعد فعلا لبذل الدماء .. بعد بذل الأموال .

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٥ ص٦

(٢) البداية والنهاية جـ٥ ص٦ ، وانظر فقه السيرة للغزالى ص ٤٢٧ ، ذكره ابن إسحاق فى المغازى ، وكذا ابن الحافظ فى «الإصابة» عن علية بن زيد ، فقه السيره للسيوطى ص ٣٠٩

من يخلف الرسول على المدينة ؟ ومن يخلفه فى أهله ؟

استعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن سلمة الأنصارى ، وقيل سباع بن عرفطة .

وخلف على أهله .. على بن أبى طالب .. وأمره بالإقامة فيهم .

فأرجف به المنافقون .. وقالوا ماخلفه إلا استثقالا له وتخففا منه، فلما قالوا ذلك .. أخذ على سلاحه ثم خرج حتى لحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف [١] فأخبره بما قالوا . فقال النبى ﷺ : « كذبوا » ولكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى ياعلى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبى بعدى» فرجع على ومضى رسول الله ﷺ على سفره .

خرج رسول الله ﷺ يوم الخميس وضرب عسكره على ثنية الوداع [٢] ومعه ما يزيد على ثلاثين ألفا من الناس [٣] .

وضرب عبد الله بن أبى عدو الله عسكره أسفل منه نحو ذباب [٤] .

ثم تحرك رسول الله ﷺ نحو الشمال يريد تبوك [٥] .

---

(١) الجرف : مكان بينه وبين المدينة ثلاثة أميال ، وقيل سمى بذلك لأن تيمار به فقال هذا جرف الأرض ، السيرة النبوية بن هشام ص٨٥

(٢) ثنية الوداع : اسم موضع

(٣) فتح البارى جـ٨ ص١١٧ ، ١١٨ — والبداية والنهاية جـ٥ ص٧

(٤) نحو ذباب : جبل بالمدينة

(٥) وتخلف عبد الله بن أبى عن المسير مع رسول الله ﷺ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب : السيرة النبوية لابن هشام جـ٤ ص٨٥

أحداث عبر الطريق :

• ومر الجيش الإسلامى فى طريقه إلى تبوك بالحجر[1] فاستقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : «لا تشربوا من مائها ، ولا تتوضأ منه للصلاة : وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئا ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها ناقة صالح عليه السلام .

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : لما مر النبى ﷺ بالحجر قال : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، أن يصيبكم ما أصابهم ، إلا أن تكونوا باكين ، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادى[2] .

• واشتدت فى الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فدعا الله ، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا ما حاجتهم من الماء .

• كان رسول الله ﷺ يجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء جمع التقديم وجمع التأخير كليهما ، قال الإمام مالك رحمه الله : عن أبى الزبير عن أبى الطفيل عامر بن واثلة أن معاذ بن جبل أخبره أنهم خرجوا مع رسول ﷺ عام تبوك ، فكان يجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء ، قال ٢ فأخر الصلاة يوما ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعا فصلى المغرب والعشاء جميعا .

---

(١) الحجر : ديار ثمود والذين جابوا الصخر بالواد ، أى وادى القرى بين المدينة والشام

(٢) صحيح البخارى : باب نزول النبى ﷺ الحجر جـ ٢ صـ ٦٣٧ ، البداية والنهاية جـ ٥ صـ ١٠

ثم قال : « إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك ، وإنكم لم تأتوا منها حتى يضحى ضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتى » قال معاذ فجئنا وقد سبق إليها رجلان ، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء ، فسألهما رسول الله ﷺ «هل مسستما من مائها شيئاً ؟ قالا : نعم . وقال لهما ما شاء الله أن يقول . ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ، ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير ، فاستقى الناس .

ثم قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملىء جناناً »[1] .

• وفى الطريق . . قال رسول الله ﷺ : « إنها ستهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقم أحد منكم ، فمن كان له بعير فليوثق عقاله » قال أبو حميد : فعقلناها ، فلما كان من الليل هبت علينا ريح شديدة ، فقام فيها رجل فحملته الريح حتى ألقته فى جبل طىء »[2] .

الجيش الإسلامى فى تبوك :

وصل الجيش الإسلامى تبوك ، بعد سفر شاق ، وعناء كبير ، فعسكر هناك ، وهو مستعد للقاء العدو .

وقام رسول الله ﷺ فى الجيش خطيبا ، فخطب خطبة بليغة ، أتى فيها بجوامع الكلم ، وحض على خيرى الدنيا والآخرة ، وحذر وأنذر ،

---

(١) أخرجه مسلم من حديث مالك به عن معاذ بن جبل حـ ٢ ص ٢٤٦ ، انظر الرحيق المختوم ص ١٥٤ ، البداية والنهاية حـ ٥ ص ١٢ .

(٢) صحيح مسلم حـ ٢ ص ٢٤٦ .

وبشر وأبشر حتى رفع معنوياتهم ، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل ، من حيث قلة الزاد والمادة والمؤونة .

وعلى الجانب الآخر الرومان وحلفاؤهم ، لما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يثبتوا فضلا عن التقدم واللقاء ، بل تفرقوا فى البلاد داخل حدودهم ، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية ، فى داخل الجزيرة وأرجائها النائية ، وتجلت عناية الله سبحانه لرسوله وجنده محققاً له قوله : « نصرت بالرعب مسيرة شهر »(١) .

« يحصل المسلمون مكاسب سياسية كبيرة وخطيرة ، لم تكن فى الحسبان .. ثم يحدث تبادل الحوار بين رسول الله ﷺ وبين الروم كما سنرى ..

من تدبير الله تعالى للدعوة :

• على المستوى العسكرى لم يحدث قتال بين جيش المسلمين وجنود الروم .. وذلك تكريم من الله سبحانه .. كما فعل معهم فى غزوة الأحزاب .. « وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا »(٢) .

• على المستوى الفكرى .. كان الحق تبارك وتعالى يدبر للدعوة ..

بعث رسول الله ﷺ بكتابه إلى هرقل .. يحمله دحية الكلبى .. فلما أن وصل إلى هرقل كتاب رسول الله ﷺ .. دعا قسيسى الروم وبطارقتها ثم أغلق عليه وعليهم الدار ... فقال : قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم ؟

(١) الصحيحين عن جابر بن عبد الله : « أعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى ... » لفظ البخارى انظر فتاوى ابن تيمية حـ ٢١ باب التيمم ص ٣٤٧

(٢) سورة الأحزاب جزء من الآية رقم ٢٥

يريد رسول الله ﷺ . . وقد أرسل إلى يدعونى إلى ثلاث خصال :

• يدعونى أن أتبعه على دينه .

• أو أن أعطيه ما له على أرضنا .. والأرض لنا .

• أو نلقى إليه الحرب .

والله لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب لتأخذن ، فهلم فلنتبعه على دينه ، أو نعطيه ما لنا على أرضنا .

فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم وقالوا نذر النصرانية أو تكون عبيداً لأعرابى جاء من الحجاز .

فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رقأم [1] ، ولم يكد وقال : إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم .

ثم دعا رجلا من عرب تجيب كان على نصارى العرب ، قال ادع لى رجلا حافظا للحديث ، وعربى اللسان ، أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه ، فجاء بى [2] ، فدفع إلى هرقل كتابا ، فقال : إذهب بكتابى إلى هذا الرجل ، فما سمعت من حديثه فاحفظ لى منه ثلاث خصال :

أنظر هل يذكر صحيفته التى كتب إلى بشىء ؟

وانظر إذا قرأ كتابى فهل يذكر الليل ؟

وانظر فى ظهره هل به شىء يريبك ؟

قال التنوخى ، فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكا ، فإذا برسول الله جالس بين ظهرانى أصحابه محتبيا على الماء .

---

(١) فى النهاية : رقا الدمع سكن ، ورقا بالقاء التأم وقرب

(٢) هذا هو التنوخى الذى أرسله قيصر بكتابه إلى رسول الله ﷺ

فقلت : أين صاحبكم ؟

قيل : هاهوذا . فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه ، فناولته كتابى ، فوضعه فى حجره ثم قال : « ممن أنت » ؟

فقلت : أنا أخ تنوخ ، قال : هل لك إلى الإسلام الحنيفية ملة أبيكم إبراهيم ؟ .

قلت : إنى رسول قوم ، وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم ، فضحك وقال : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »[1] . يا أخا تنوخ ، إنى كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه ، والله ممزقه وممزق ملكه .

وكتبت إلى النجاشى بصحيفة فخرقها ، والله محرقه وممزق ملكه .

وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها ، فلن يزال الناس يجدون منه بأسا ما دام فى العيش خير » .

قلت هذه إحدى الثلاث التى أوصانى بها صاحبى ، فأخذت سهما من جعبتى فكتبته فى جنب سيفى .

ثم إنه ناول الصحيفة رجلا عن يساره .

قلت من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم ؟

قالوا : معاوية ، فإذا فى كتاب صاحبى .. تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .. فأين النار ؟

فقال رسول الله ﷺ : سبحان الله ! أين الليل إذا جاء النهار ؟ قال : فأخذت سهما من جعبتى فكتبته فى جلد سيفى .

---

(١) سورة القصص الآية رقم ٥٦ .